شخصية(جحا) العربي في الأدب العالمي

د. ثائر سمير حسن الشمري
كلية التربية الاساسية / جامعة بابل

ان أساس ظهور الحكاية كان لغرض التسلية أو التربية أو لتقاليد بدائية لدى الانسان الأول، وكان حجمها القصير دليل أكيد على شفاهية روايتها كي يسهل على الناس حفظها، ولعل قصرها كان واحداً من أسباب كثيرة لشيوعها، ثم انتقالها من أمة الى أخرى[1].

وكان العراقيون الأوائل قد انتجوا في " القصص والملاحم وكتبوا الصلوات والأدعية والترانيم، وجمعوا الأمثال والحكم والنصائح ونظموا قصائد الغزل والمقامات "[2].

ووُجدَت الى جانب هذه الأنواع الأدبية، الحكايات القصيرة المرحة ذات السمة النَقدية لسلوك الانسان، ولكنها لم تكن من الكثرة بحيث تضاهي الأنواع الأدبية الأخرى.

وتنشط الحكايات القصيرة ذات العبرة والاعتبار في الهند حوالي القرن السادس(ق.م)، فان(كوتاما) أحد أبناء عشائر جنوب(النابال) أوجد مذهباً يغلب عليه التدين والزهد، وسُمّيَ هذا الرجل بعد ذلك بـ(بوذا) أو(المتنور)، وكتب آراءه باسلوب قصصي شائق، وبلغ مجموع قصصه(550) خمسمائة وخمسين قصة[3].

وفي حدود القرن السابع(ق.م) ظهر في الفكر الآشوري(احيقار الحكيم) وترك لنا نصاً في التربية الاجتماعية احتوى على كثير من قصص الحيوان التي يبدو انها وصلت الى يد(ايسوب)[4] الذي أفاد منها في كتابة الحكايات التي عُرفت باسم(خرافات ايسوب)، واشتهر اسم(ايسوب) في حدود النصف الثاني من القرن الخامس(ق.م) واشتهر خطأ "على انه الكاتب الوحيد لحكايات الحيوان"[5].

ونجد في أمثالهم وقصصهم عدداً من الحكايات القصيرة التي تدور حول الحيوان، أو الشخصيات ذات السلوك الغريب والشاذ والمضحك.

وفي الواقع لم تكن الحكايات الواقعية هي الفضاء الوحيد أو النوع اليتيم من حكايات العرب، بل كانت لديهم القصة المفتعلة كما في قصصهم التي كان يوردها شعراؤهم في أشعارهم في مقطع الرحلة.

وتصبح الصورة الاسلامية للحكاية أكثر وضوحاً، فمنذ القرن الأول للاسلام يسجّل لنا التاريخ حكايات واقعية ومضحكة عن شخصيات مشهورة بالحرص على البخل أو البلاهة مثل شخصية(أشعب) و(مزبّد).

وتستقطب شخصية(جحا) أكثر هذه النوادر التي وقعت من شخصيات تاريخية مجهولة، ويصبح لدى العرب في أول القرن الرابع شخصية ذات بعد فني تنسب اليها حكايات من نوع خاص.

إلاّ ان الفرق هنا بين شخصيتي(احيقار) و(ايسوب) وشخصية(جحا)[6] هو ان الشخصيتين الأوليتين لا تمثلان حكاياتهما وان ما كتباه أو نُقِلَ عنهما لا يمثل سلوكهما اليومي، في حين ان ما نُقِلَ عن(جحا) كان يمثل شخصية في سلوكها اليومي المعتاد، ولذلك نُظِرَ الى(احيقار) و(ايسوب) على انهما حكيمان من طراز رفيع، ونظر الى(جحا) على انه شخصية بلهاء أو بسيطة أو ذكية تصطنع الغباء لأسباب سياسية أو اجتماعية.

والخلاف الثاني بين حكايات(احيقار) و(ايسوب) وحكايات(جحا)،ان حكايات الشخصيتين الأوليتين كانت تدور – في الأكثر – حول الحيوان، في الوقت الذي كانت تدور فيه حكايات(جحا) حول السلوك الانساني في شؤون الحياة الاعتيادية البسيطة، وأحياناً حول الأمور التافهة.

وفي سبيل أن نواصل سيرنا حتى ظهور شخصية الخوجة(نصر الدين)- الذي كان الوريث الشرعي لحكايات(جحا)- فعلينا أن نتساءل : لماذا ظهر نمط حكايات(جحا) في المجتمع الاسلامي ؟ ومَن(جحا) ؟

واذا ضرب العرب الأمثال في الجاهلية بأمثلة ضعيفة فلأن البيئة الصحراوية كانت لا تسمح للانسان ان يحيا فيها، ولان صراع الانسان في سبيل البقاء في تلك البيئة الضارية كان على أشده، وحين يظهر الشاذ الضعيف في بيئة قاسية يصبح مضرب المثل لندرته او قلته.

وبظهور الاسلام اصبحت الحياة الاجتماعية العربية في المدن والامصار اكثر استقرارا، واصبحت الحياة في الحاضرة هي النمط الاجتماعي المقبول، وقد نشات في هذه المدن حياة مترفة لعوائل نبيلة وعريقة مما درته عليها الفتوحات[7].

والدين الاسلامي قنّن لهذا المجتمع الجديد حياته في الدنيا والاخرة، وبدأ الانسان العربي الجديد يرى الحياة واضحة من المهد الى اللحد، واختفى من حياة العربي هاجس الخوف والحدث غير المتوقع الذي يهدم امن الانسان واستقراره النفسي[8].

واصبح كل من الشاعر والمغني والموسيقار والمبدع يلوذ بالبلاطات والبيوت الضخمة ذات اليسر والغنى يبحث عن العيش الميسور.

وفي(المدينة) ذات العوائل المعزولة عن السياسة، الغارقة بالثروة والفراغ، ظهر شعر الغز اللاهي الذي بعث الغناء وشجعه، وظهرت الشخصيات المرحة الطفيلية التي تنمو نمو نبات الفطر في هذه البيئات الملائمة.

ولهذا نجد ان شخصية(أشعب) وحكاياته اليومية، السلوكية المرحة تنشأ في المدينة، وتظهر كذلك شخصية(مزبّد) هناك ايضاً.

ان حب الاغنياء الكرماء للظهور في الامصار والمدن استقطب اعدادا كبيرة من الشخصيات المرحة المضحكة، وان الاتصال الدائم بين الامصار العربية بسبب الحج او التجارة جعل سيرورة هذه الحكايات وشيوعها امرا محتوما، ولعل نشاة علم الرواية وتسجيل النصوص واخذ اللغة من الفصحاء قد حثّ على جمع هذه النوادر ورواياتها.

وما نكاد نصل الى القرن الثالث الهجري حتى نجده يكاد يخلو من ذكر اسم هذه الشخصية وان كانت بعض الحكايات اختصت بشخصية النقد اليومي، وقد ظهرت كتب مثل(البيان والتبيين)[9]، و(البخلاء)[10]، و(الحيوان)[11] لـ(الجاحظ)(ت255هـ)، و(عيون الاخبار)[12] لـ(ابن قتيبة)(ت276هـ)، إلاّ انها لم تذكر شخصية(جحا).

واشار بعض الباحثين الى ان اسم(جحا) ورد في رسالة(البغال)[13] لـ(الجاحظ)، إلاّ ان التسليم بصحة كتابة(الجاحظ) لاسم(جحا) محور جدل ونقاش، وليس النساخ هم الذين فعلوا ذلك، ولعلّ اول اشارة الى اسم(جحا) هي التي وردت في(الفهرست) لـ(ابن النديم)[14]، فقد ذكر كتابا بعنوان(نوادر جحا)، ولعل هذا المصدر يقودنا الى استنتاج هو ان تخليف كتاب في النوادر يذكره(ابن النديم) يجعلنا متفقين على ان النوادر في هذا العصر بلغت من السعة والثبوت بحيث اصبحت هنالك كتب تؤلف فيها، ويجعلنا على يقين بان هذه النوادر اصبحت من السعة بحيث رتبت واصبحت لها موضوعات جعلتها اهلا لريادة لقب العلم الذي يستقل فيه التاليف.

ومن جهة اخرى يقودنا ذلك الى ان(جحا) لم يكن مجرد شخصية اعتيادية، بل قد تكون له حلقة تشبه تلك التي تعقد لكبار علماء اللغة والنحو والعلوم الاخرى، هذه الحلقة كانت ثمرتها هذا الكتاب الذي ذكره(ابن النديم)، وفي الوقت نفسه يجعلنا على قناعة ان(جحا) خلف تلاميذاً طوروا من بعده هذا العلم، ولعلّ اشهر هؤلاء فيما بعدهما(الهمذاني) و(الحريري) صاحبا المقامات، وما المقامة إلاّ شكلٌ متطور لتلك الثمرة التي بذرها(جحا)، ثم ان(جحا) بهذا يكون صاحب مدرسة، لاننا عددنا الشخصيات العلمية صاحبة مدارس لمجرد

انتشار علومهم مدة من الزمن، فحينئذ يكون لقب(صاحب مدرسة) اقل ما يستحق(جحا) لانه ظل حياً الى يومنا هذا في انحاء العالم جميعها بغض النظر عن اختلاف التسمية.

ثم اننا من العبث ان نعد تلك النوادر التي بثها(جحا) مجرد فكاهات مضحكة لا جدوى منها، والواقع ان استقراء هذه النوادر يجعلنا امام حقيقة نقدية، وهذا النقد هو(النقد الاجتماعي)، بل هي بداية الكوميديا التي ظن كثير من الباحثين انها طارئة علينا من الغرب، وابعد من ذلك، فقد يكون هذا بداية الفن التمثيلي النظري، ولكن لو سلمنا مع وجهة نظر بعض الباحثين المستندين بها الى اراء علماء قدماء، القائمة على اساس ان كثيرا من اصحاب النوادر الاعتياديين في العصر العباسي كانوا يرتدون ثياباً مختلفة،ويؤدون ادواراً مختلفة هو بداية التمثيل عند العرب، اقول: ان كانت الاستنتاجات قائمة على هؤلاء، فما بالنا بـ(جحا)الذي لا اتردد حينما اقول بانه اول المؤلفين العرب في مجال التمثيل.

وقد ورد اسم(جحا) بصيغ مختلفة مثل(نوح) و(دُجين) و(ابن الحارث)، وان اسم(جحا)(عبد الله) وكنيته(ابو الغصن)، وقدّرتْ ولادته بحدود النصف الاول من القرن الاول الهجري، وعاش حتى قارب منتصف القرن الثاني الهجري، وذُكرتْ له حكاية مع(ابي مسلم الخراساني) الذي عاش في صدر الدولة العباسية[15].

والذي يدل على وجود شخصية(جحا) في تراثنا العربي:-

1- ان(جحا) اسم ذُكر في التراث العربي منذ القرن الرابع الهجري، ولم يكن اسماً مستوردا لشخصية اجنبية.
2- ان بعض الحكايت العربية المنسوبة لشخصيات تاريخية، او شخصيات مغمورة، او مبتدعة نسبت الى(جحا) ايضاً.
3- ان لقب(جحا) اطلق على شخصية تركية ذات مزاج شابه مزاج(جحا) العربي،وهو(الخوجة نصر الدين)، كما ان كثيراً من حكايات(جحا) اضيفت اليه، الى جانب حكايات مصنوعة في البيئة التركية التي عاش فيها(الخوجة نصر الدين).

والسؤال الذي قد يسأل الان هو : لماذا تقمّص(الخوجة نصر الدين) شخصية(جحا) ؟

وللاجابة عن هذا السؤال نقول: ان المصادر العربية المتاخرة وصفت(جحا) بالسماحة وصفاء السريرة، ونسبوا اليه(الكرامات)، وكذلك نسبوه الى العلماء.

وفي المرحلة التي ظهرت فيها هذه الشخصيةكانت العقيدة الصوفية تنقل هذا السلوك فتمنحه لـ(الخوجة نصر الدين)، واستعارت له النوادر العربية في وجه الضغط الفكري والنفسي للحياة القاسية بالنقد الهازل متخذة ذلك وسيلة من وسائل المقاومة النفسية، ووضعت على لسانه الحكايات والقصص التي تعبر بها عن رفضها او نقمتها.

من ذلك كله ظهرت هذه الشخصية، وكانت ذات صفات مشابهة لما رسمته المصادر العربية المتاخرة لـ(جحا) العربي، وفي ذلك يقول محمد رجب النجار: " ذلك ان الرمز الجحوي بعامة من سماته المحورية ان يكون عالماً فقيها سمحا، له كراماته وبركاته، صافي السريرة، نقي القلب، لا يضمر الحقد لاحد ولكنه يشفق على الناس من عبث الناس، متوسلا في نقده للحياة والاحياء بالقول الذي يتصوره بعضهم نوعا من الحماقة والتغفل [...]"[16].

وهذا الرأي من لدن هذا الباحث يبقى فاقداً للدليل الذي يثبته من ناحية كونه عالما وفقيهاً، فالمصادر الاولى، وحتى المتاخرة لم تذكر شيئا كهذا، فظرافته وطيبته لا تؤديان بالضرورة الى ان يكون فقيها وعالما،

وعلى الرغم مما اوردناه من آراء في خصوص(جحا)، نقول : ان شخصيته تبقى في حدود التحليل المنطقي، ولا تتجاوزه، اما ان نؤول انه فقيه فذلك امرٌ بعيد، ويبقى الفقيه هو الشخص الذي يمثل المبالغة في الزهد وتحقير الحياة، واذا كانت الفكاهة روح الحياة عرفنا مقدار خطأ ذلك الرأي.

اما فيما يخص الـ(الخوجة نصر الدين) فانه ولد في(الاناضول) عام(605هـ – 1209م) وتوفي سنة(683هـ – 1285م).

واختلف الباحثون – مع ذلك – في ميلاده، فبعضهم جعله في القرن السابع الهجري(الثالث عشر الميلادي)، ولكن بعضهم يرى انه عاش في القرن السادس الهجري(الثان عشر الميلادي)، او القرن الثامن الهجري(الرابع عشر الميلادي)، او القرن التاسع الهجري(الخامس عشر الميلادي)، لذا فان الخلاف في تاريخ ولادته ووفاته بلغ اربعة قرون بتمامها.

لقد كانت النوادر المرتبطة بشخصيات تاريخية هي السبب في ذلك الخلاف، فهناك بعض النوادر لـ(الخوجة) تروى مع(جنكيز خان) جد(هولاكو)، و(جنكيز خان)(ت624هـ/1227م)، ورويت كذلك بعض النوادر مع(تيمور لنك) الذي عاش في القرن الثامن واوائل القرن التاسع الهجري(ت807–1405م).

واذا اخذنا بهذه النوادر المنسوبة الى الشخصيات التاريخية فان عمره يكون تسعة عشر عاما حين قابل(جنكيز خان)، ويكون قد مات قبل ميلاد(تيمو لنك) بخمسين عاماً[17].

والذي يستنتج من هذا كله ان شخصية(جحا) العربية –التي اعطيت اسما اخر في بلاد الترك – اخذ القصاص يضيفون اليها عبر الازمان، واصبحت الشخصية رمزا تعلق على كتفيها متاعب الشعوب ونقدها للسلطة، وهكذا اخذت شخصيته تنمو، فالشعب حين يضيق ذرعا بسلطان التتار يضيف نادرة لـ(نصر الدين)(جحا) مع(جنكيز خان)، وحين يضيق ذرعا بسلطان(تيمور لنك) يعبر عن غضبه وسخريته على لسان(نصر الدين)(جحا) وهكذا.

ولعل شخصية(نصر الدين) كانت شخصية ذات هوية تاريخية، وكانت ذات طابع ضاحك، ومزاج مرح، عرف في جيله بالنادرة والطيبة، وحين مات وعفا عليه الزمن، مُزِجَتْ شخصيته بشخصية(جحا) فخرجت شخصية مركبة عربية وتركية، ولم تعد هذه الشخصية قابلة للوفاة بعد ذلك، فعاشت على امتداد القرون وعاصرت عددا من الملوك والسلاطين، ثم أخذت شكل الشخصية الثابتة بعد أن سُجِّلَتْ نوادرها في كتاب في اواسط القرن الخامس، أي قبل وفاة(تيمور لنك).

ومن خلال سلطان الاتراك السياسي زحف اثر(الخوجة نصر الدين)(جحا) مع اثر الاتراك السياسي والتجاري والعلمي، فعرفها الرومان والبلغاريون واليونانيون والالبانيون واليوغسلافيون، وكذلك الارمن والروس والقوقاز، واهل جورجيا وصربيا واوكرانيا وتركستان[18].

وفي الزمن المعاصر نشات بحوث عديدة شغلت قضية(جحا) أهمية فيها، فقد اثبت العلامة(زهير احمد القيسي)[19] في احد بحوثه ان هذه الشخصية كان لها اثر كبير في العصر العباسي كما ذكر المؤرخون ذلك الى درجة زحفت هذه الشخصية مع الفتوحات الاسلامية في هذا العصر للدول الاخرى، ولا سيما ما بعد النهر، فاصبحت مستقرة هناك، فنحن نجد(جحا) عند الفرس باسم(الخوجة)، وكذلك عند الاتراك، وعند الصينيين باسم((Go-go، في حين نجد هذا الاسم عند اليابانيين((Go-goe، وهذا الاسم دخل ايطاليا عن طريق اسبانيا في نهايات القرون الوسطى بلفظ(Keo-Jeo)، في حين كان دخوله الى بريطانيا عن طريق الترجمات الانكليزية للمصادر العربية، وكان باسم(geohoe)، وكان في امريكا باللفظ نفسه، وقد وجدنا اللفظ

لدى الفرنسيين باسم((Ghuoho، وكانت تمثل ادواراً خاصة لهذه الشعوب، ولكنها شبيهة بـــ(جحا) دليل التاثر الكبير.

اخيراً وبعد هذا كله،نقول: كيف يظن الكثير من الباحثين ان شخصية(جحا) شخصية خيالية ولا وجـــود لها ؟

هوامش البحث

1- ينظر: من ادب الهزل والفكاهة/78.
2- مقدمة في ادب العراق القديم /33-34.
3- ينظر: النقد الادبي / القسم الثاني /7.
4- ينظر: احيقار الحكيم / المقدمة.
5- الامالي في الادب الاسلامي /45-50.
6- ينظر: اخبار جحا/80.
7- ينظر: م.ن /37.
8- ينظر: م.ن /37.
9- ينظر: البيان والتبيين 1/145-2،250/225-58،4-25/89-45.
10-ينظر: البخلاء/155-255.
11-ينظر: الحيوان2/394.
12-ينظر: عيون الاخبار 1/415-425.
13-تنظر: رسائل الجاحظ /500.
14-ينظر: الفهرست /335.
15-ينظر:الاسلام في الصين /63،62،59.
16-م.ن /169.
17-ينظر:اخبار جحا /80.
18-ينظر:م.ن /265-266.
19-تنظر:مجلة سومر لعام 1985.

قائمة المصادر والمراجع

احيقار الحكيم، ترجمة : المطران غريغوريوس بولس بهنام،1976م.
اخبار جحا، عبد الستار فراج، القاهرة،، 1950م.
الاسلام في الصين، فهمي هويدي، الكويت، 1981.
الامالي في الادب الاسلامي، ابتسام مرهون، بغداد، 1985م.
البخلاء، الجاحظ(ت255هـ)، تحقيق : محمد ابي الفضل ابراهيم، القاهرة، 1965م.
البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق : عبد السلام هارون، ط6، 1984م.
الحيوان، الجاحظ، تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة، 1959م.
رسائل الجاحظ، الجاحظ، تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة، 1956م.
عيون الاخبار، ابن قتيبة(ت276هـ)، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1945م.
الفهرست، ابن النديم(ت380هـ)، طبعةالاوفيست، بيروت، 1935م.
مجلة سومر، بحث للدكتورزهير احمد القيسي، 1985م.
مقدمة في ادب العراق القديم، طه باقر، بغداد، 1976م.
من ادب الهزل والفكاهة، د. فاضل عبد الواحد، مجلة سومر، المجلد(26)، 1970م.
النقد الادبي، د. داود سلوم، بغداد، 1968م.